Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

Journal of University Studies for Inclusive Research

Vol.3, Issue 24 (2023), 12122- 12152

USRIJ Pvt. Ltd

مؤثّرات في أدب مي زيادة

الباحثة الدكتورة جينا أبي كرم

هاليفكس–كندا

jinabikaram@hotmail.com

ملخّص

"أتمنى أن يأتي بعدي.. بعد موتي من ينصفني ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الإخلاص والصدق والتّحمّس لكلّ شيءٍ حسنٍ وصالحٍ وجميلٍ لأنّه كذلك، لا عن رغبة في الانتفاع به."[١] هذا ما تمنّته مي زيادة في حياتها مشيرةً بصراحةٍ وبوضوحٍ إلى شغفها في الكتابة وإلى هدفها منها. ولعلّ أمنيتها تلك تحقّقت بعد أن أنصفها وكتب عنها كتّابٌ كثرٌ. في هذه الدراسة سيتمّ السعي بجهد للبحث في كتاباتها بعد قراءة مؤلّفاتها بإمعان وتحليل، من أجل استخراج ما هو صالح وجميل على حدّ تعبير الأديبة، وما هو مفيد بالوقت نفسه من للمساهمة بنشر المعرفة والتعلّم والاستفادة. وبعد الانكباب على دراسة ما كُتب عنها من كتب ومقالات وتحقيقات صحفية، سيجري التطرّق إلى أبرز المواضيع التي عالجتها وأبرز العوامل

[١] سعد، فاروق، باقات من حدائق مي، منشورات زهير بعلبكي، سنة (١٩٧٣)، داخل الغلاف الخارجي.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

والمؤثرات المحيطة بها والتي دفعتها إلى الكتابة. كما سيجري الحديث عن تأثرها بالرومنطيقية وبمواضيع الرومنطيقيين، وتأثّرها بكل ما كانت تمرّ به المنطقة العربية والعالم في تلك الحقبة.

كلمات مفاتيح: الرومنطيقية، الطبيعة، الألم، الوطن، النهضة النسائية.

The influences in the literature of May Ziadeh.

Researcher: dr. Gina Abi Karam

Halifax-Canada

jinabikaram@hotmail.com

Abstract

“I hope that after my death someone will come and do me justice and extract from my humble writings the spirit of sincerity, honesty and enthusiasm for everything good, good and beautiful because it is, not out of a desire to benefit from it.”

This is what May Ziadeh wished for in her life, indicating honestly and clearly her passion for writing and her goal of it. Perhaps her wish came true because many writers wrote about her. In this study, an effort will be made to research her writings after reading her works carefully and analytically, in order to extract what is good and beautiful, in the words of the writer, and what is useful at the same to contribute to the dissemination of knowledge, learning and benefit. After studying what has been written about her as well in terms of books, articles and journalistic investigations, we will talk about her most prominent topics and the most prominent factors and influences that were surrounding her and that prompted

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

her to write. We will also talk about how she was influenced by the Romanticism and its topics, and how she was influenced by everything that the Arab region and the world were going through in that era.

Keynotes: Romanticism, nature, pain, homeland, feminism.

مقدّمة

تسلّط هذه الورقة الضوء على مي زيادة الأديبة التي تحمل كتاباتها الكثير من المواضيع المتشعّبة، كما تطرح إشكالية ما إذا كانت هذه المواضيع وليدة العوامل المحيطة بالأديبة، وعلى هذا سأقسم البحث إلى النقاط التالية: تأثّر الأديبة بالمدرسة الرومنطيقية وبمواضيع الرومنطيقيين، آثار كل من الطبيعة والألم والوطن في كتاباتها، كما سأذكر معالجتها لموضوع النهضة النسائية وفي نهاية البحث النتائج.

١-تأثّر الأديبة بالرومنطيقيّة

كان لمي إنتاجٌ أدبيٌّ وفيرٌ، متعدّد الأنواع والأغراض، ذو ظلالٍ بعيدة المدى في دنيا الأدب، غنيٌّ بالمواضيع الكثيرة التي كان عصرها يموج بها. كانت تغرق في مطالعتها لا سيما كتب شعرائها المفضّلين، وهم شعراء الرّومنطيقية ونذكر منهم: فكتور هوغو، ألفونس دو لامرتين، جورج غوردن، بايرون وغيرهم من روّاد الأحلام والدموع والعواطف وجمالات الطبيعة والتأمّلات الضبابية في المجتمع والحياة والموت.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

لنتعرّف قليلاً في البداية على الرومنطيقية وعلى أبرز معتقداتها. لقد كانت الرومنطيقية وبالفرنسية Le romantisme حركة احتجاج مفعم، وحماسة وعاطفة ضدّ العالم الرأسمالي البورجوازي[٢]. قد يبدو ظهور الفكر الرومنطيقي في القرن الثامن عشر من المفارقات الغريبة في ذلك العصر، المتّسم بروح العلم والتفكير العقلاني الذي كان له الفضل في خروج أوروبا من عهد الوصاية والقصور إلى عهد الحرية الفكرية والتطور العلميّ.

بدأ هذا التيّار ينتشر بوتيرة سريعة أولًا في فرنسا خصوصًا مع الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو الذي أثار جدلًا بحساسيته وتعاطفه مع الطبيعة، وشاعريّته وإيمانه بخلود النفس البشرية. فقد انصهرت فكرته في العقيدة السائدة آنذاك والقائلة بتفوّق الإلهام على الفكر العقلاني. وحذا حذوه الرومنطيقيّون الذين انتقدوا الفكر المتنوّر الذي نادى به الفلاسفة العقلانيون وقد بدا لهم العقل عقيماً، وأخذوا يمجّدون العاطفة باعتبارها مصدر لكلّ شيء[٣]. ولم يقتصر الفضول الرومنطيقي على الخيال في الآداب والفن، فقد تأثر الناس واستحوذ عليهم شعور جديد من الحبّ والعشق للمشاهد الطبيعيّة وتأليه الحبيب وحب الألم والتّوجع في العشق وحالة الشوق الدائم.

أما تأثّر الكاتبة بالأدب الرومنطيقي الذي تغذّت منه على مقاعد الدراسة، جعل موضوعاتها الوجدانيّة هي موضوعاتهم، وتأمّلاتها تأمّلاتهم. فهي مثل الرومنطيقيين تمجّد الألم فهو "مغذّي الذكاء ومهذّب الشعور ومنبّه الإدراك إلى معانٍ جمّة وأساليب فكرية كثيرة. وهي تناجي الطبيعة مثلهم، وتتساءل عن أسرار الكون

[2]Fischer Ernest, *The Necessity of Art*, California, Penguin Books, 1978, p.102

[٣] قاسيميّ، زهير، الرومنطيقية نبذ للعقل وتمجيد للعاطفة، الشبكة العربية العالميّة، نقد ودراسات، ٢١ كانون الأول ٢٠١١

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

وخباياه، فتقول مثلًا:" أيّتها العيون المحوّلة نظرك عن نظرنا! على أي آفاق تفتحين جفونك؟ وماذا ترين هنالك، يا أيّتها الأحداق الشاخصة؟ هل بين ظلام الأبدية وظلام أرضنا تشابه وانتساب؟ وهل أنوار دياركم تماثل أنوار ديارنا؟"[٤]. بما أنّ الطبيعة هي أحد أبرز مواضيع الرومنطيقيين، سنستهلّ كلامنا بالحديث عن تأثير الطبيعة في نفس مي وعن أهميّتها في كتاباتها.

٢-الطبيعة

إذا راجعنا كتابات مي من شعر ونثر، لا نلاحظ فيها موضوعًا واحدًا يستأثر اهتمامها دون سواه، وليس هناك من عاطفة طاغية جارفة تسيطر على كتاباتها. فمعظم كتاباتها هي موضوعات الرومنطيقيين الذين سبق وذكرنا أنها كانت تقرأ لهم كثيرًا في شبابها، "أما شغفها بالطبيعة فهو شغفهم".[٥] فهي التي تقول في مذكّراتها: "البحر هو أحد أقانيم حبّي وحبّي مثلّث الأقانيم: السماء والبحر والعيون"[٦]، ما يدلّ على موقع الطبيعة في قلب وفكر مي، فالطبيعة أحد مقدّساتها وهي جزءٌ لا يتجزّأ من إيمانها.

ما يبدو واضحًا جدًّا في كتاباتها، وخصوصًا في مذكّراتها، هو الاتّجاه التأمّلي والنظرة العميقة إلى الأشياء وهذا ما ورثته عن الرومنطيقيين. فلم تكتفِ بوصف مفاتن الطبيعة، بل وصفت أيضًا انعكاسات الطبيعة في نفسها وتأثيرها بعواطفها وتصوّراتها. فعلى قدر ما عشقت البحر تمنّت لو تكون رجلاً فقط لتكون بحريًّا وكاتبًا. كما أنّها تحسد أولئك الذين يقضون شطرًا من حياتهم تائهين على الأمواج، وهذا ما قالته خلال رحلةٍ

[٤]زيادة، مي، الصحائف، نوفل، سنة (١٩٧٥)، ص. ١٤٥
[٥]غريّب، روز، مي زيادة التوهّج والأفول، نوفل، سنة (١٩٧٨)، ص. ٥١
[٦]جبر جميل، مذكّرات مي زيادة، دار الريحاني للطباعة والنشر، سنة (١٩٧٨)، ص. ١١٥

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

من رحلاتها العديدة في الباخرة منتقلةً إلى بور سعيد–الإسكندرية: "غرفتهم المتحرّكة تجول بهم في العالم، وعيونهم تنفتح أبدًا على شواطئ غريبة جديدة فتّانة."[٧]

أمّا بما يتعلّق بالعشق لمشاهد الطبيعة، فقد كانت الكاتبة عاشقةً للطبيعة إلى أقصى الحدود. فهي عندما سألت نفسها عما هي أمنيتها، أغمضت عينيها وما لبثت أن وجدت نفسها "مستلقيةً على شاطئ بعيدٍ، حيث الرمال الذهبية تغسلها الأمواج وتنشفها أشعّة الشمس، وحيث الصخور والشقوق"[٨]. فهناك تكتفي بمناجاة الأصداف والحصى حولها. وهذا يدلّ على أنّ جُلّ ما تتمنّاه هو أن تكون قريبة من البحر وملتصقةً به. وللبحر معانٍ عدّة عند الرومنطيقيين، فهو مصدر الإلهام لديهم، فيه يرمون أحزانهم لكي تعود إليهم على شكل ملهم تحثّهم على الكتابة والتعبير بأجمل الأساليب وأروعها.

هيام مي بالطّبيعة قد يعود إلى المرحلة التي قضتها في لبنان عندما كانت طالبة صغيرة في عينطورة. ولبنان معروف بطبيعته الأخّاذة ومناخه الجميل، فكان من الطّبيعي أن تأخذ الطّبيعة مكانة هامّة في تكوين شخصيّتها وفي تأثيرها على أدبها. كما أنّها صادقت الطبيعة في وحدتها وغربتها عن أهلها، فكانت "تتلهّى في ظلال الشجر سارحةً نظرها إلى شطوط البحر وخضرة الأرض وجمال زهر الربيع".[٩] متأثّرةً بجمال طبيعة بلد الأرز، تقول مي واصفةً بيروت: "بيروت سحرٌ للناظرين. في سديم ضباب الصباح الفضّيّ ترتسم الجبال، فيثير التلفّظ باسمها شعورًا مؤلمًا في النفس. تلك هي جبال لبنان. عصبت هامتها أكاليل من المرجان، وغمرت

[٧] زيادة، مي، الصحائف، نوفل، سنة (١٩٧٥)، ص. ١٤٤

[٨] زيادة، مي، سوانح فتاة، نوفل، سنة (١٩٧٥)، ص. ٧٣

[٩] سكاكيني، وداد، مي زيادة في حياتها وآثارها، دار المعارف، سنة (١٩٦٩)، ص.١٠٦

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

أعماق أوديتها الظلال...أين قلم لامرتين السحريّ ليعبّر عن هذا الجمال؟! ومن يستطيع سوى "شاعر البحيرة" أن يعبّر عن سحر الطبيعة الفتّان؟!"[١٠] كم أنّ مي مسحورة بطبيعة لبنان، فهي لم تستطع إخفاء رغبتها بسماع ما قد يقوله الشاعر الفرنسي لامرتين المنتمي إلى المدرسة الرومنطيقية الفرنسية. فهي قد عبّرت وبأجمل الكلمات والأسلوب عن انبهارها بجمال الطبيعة في لبنان، بجمال بيروت وبجمال الجبال والأودية، ولكنّها كانت تريد المزيد، كانت تريد أن تسمع ما قد يقوله لامرتين ناظرًا إلى كلّ تلك الروعة ومتأثّرًا بهذا الجمال. كانت تسعى إلى معرفة آراء شعّارها المميّزين وأيّة كلمات سينتقون لوصف روائع الطبيعة اللبنانية.

فقد كانت مي نزّاعة إلى الطّبيعة: "إنّي أحبّ أن أراقب السّماء كلّ مساء، وأنظر إلى النّيران السّاطعة، وأرحّب بالهلال الذّهبي البادي كأنّه منجل يحصد الكواكب الوهّاجة التي نراها تنسلّ خفية في الرّقيع الأزرق الشّاسع فوق رؤوسنا الصّغيرة... إنّي لأشغف بسماع تغاريد الطّيور قرب وكناتها وأهوى أنغامها الغراميّة بين الأوراق الخضراء"[١١]. ها هي الطبيعة مع كل عناصرها تأخذ حصّةً كبيرة من حياة مي لتؤثّر وبالفعل نفسه وبشكلٍ كبير في كتاباتها.

بالإضافة إلى الطبيعة، هناك موضوع آخر هيمن على كتاباتها من ناحية وأثّر عليها من ناحيةٍ أخرى. فالألم والحزن كانا أوفى أصدقائها وأقرب المقرّبين إليها.

[١٠] جبر، جميل، *مذكّرات مي زيادة*، مرجع سابق، ص. ٣١

[١١] المرجع نفسه، ص ص. ٣٦-٣٧

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

٣-الألم

"الألم زيت العبقريّة، والمعاناة فتيلها الملتهب، فحين يتعمّد الإنسان في جرن من الألم حين يتمسّح بميرون المعاناة ويتسربل في سكونيه الوحدة، حين يتم كلّ ذلك، يتخاصم مع العالم ولا يتصالح معه أبداً إلاّ إذا أفرز حزنه وألمه قطعاً فنيّة"[١٢]. إنّ مي زيادة أديبة صاغها الألم والحزن، وصقلتها المعاناة وفجّرت عطاءها الكآبة، فأصبحت كاتبة تتقن التّعامل بالأحرف فتأتي بالكلمات المغربلة منتقيةً أجمل المعاني وأحلى النغمات. صَبَغَ الألم حياة مي ما دفع بها إلى هبوطٍ نفسيّ، وخاصةً بعدما فقدت أصدقاءها وأقرب الناس إليها واحدًا بعد الآخر، "فهدّت كل هذه الجروح نفسها وساقتها إلى الموت"[١٣]. وكان لكل ذلك أثره الظاهر والعميق في كتاباتها، فكانت في السنوات التي تلت فقدان والديها وفقدان جبران خليل جبران تعاني آلامًا نفسيةً حادّةً دفعتها إلى العزلة والمطالعة والتّلهّي بالتدخين. تظهر رسالة كتبتها لنسيبها الدكتور جوزيف زيادة في أيلول ١٩٣٥ مدى يأسها وفقدانها لرغبة الحياة، وهذا نصّها:

"منذ مدّة طويلة لم أعد أكتب[١٤] وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمّد حركة يدي ووثبة الفكر لدي. إني أتعذّب يا جوزيف. ولا أدري السبب. فأنا أكثر من مريضة وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسّه فيّ وحولي. إنّي لم أتألّم أبدًا في حياتي كما أتألّم اليوم. ولم أقرأ في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمّل ما أتحمّل. وددت لو علمت السبب على الأقل. لكني لم أسأل أحدًا إلا وكان جوابه: لا شيء. إنه وهم

[١٢] حبيب، بولس، ميّ زيادة كاتبة صقلتها المعاناة، مجلة الجبة الديمقراطية للسلام والمساواة، ٨-١-٢٠١٢

[١٣] غريّب روز، مي زيادة التوهّج والأفول، مرجع سابق، ص. ٦٩

[١٤] منذ أربعة شهور على وجه الضبط لأن آخر مقالاتها نشرت في أيار ١٩٣٥ في مجلة "الرسالة" المصرية.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

شعري تمكّن مني." وتتابع قائلةً: "لا لا يا جوزيف. إن هناك أمرًا يمزّق أحشائي ويميتني في كل يوم بل في كل دقيقة. لقد تراكمت عليّ المصائب في السنوات الأخيرة[١٥] وانقضّت على وحدتي الرهيبة، التي هي معنوية أكثر منها جسدية. فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذابًا كهذا؟ وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبتي ووحدتي الشعرية فكنت أعمل وأعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلّي أنسى فراغ مسكني. أنسى غصّة نفسي، بل أنسى كل ذاتي." وتختم رسالتها الحزينة بالعبارات التالية: "إنه ليدهشني حقًا كيف أني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة. ولعلّ الفضل في هذا يعود جزئيًا إلى اللفائف التي أدخنها ليل نهار. أنا التي لا عهد لي بذلك. أدخّنها لتضعف قلبي. هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم."[١٦]

كم من الحزن واليأس تتضمّن كلمات هذه الرسالة، وكم من الوجع والغصّة يختبئ بين سطورها. يظهر لنا مع قراءة كل كلمة مدى ألمها والحالة النفسية المزرية التي تسيطر عليها، فهي تتمنّى الموت دون شكّ، وتسعى إلى الانتحار من خلال تدخينها للفائف ليلاً نهارًا، فهي تدخّنها لتضعف قلبها الذي لا يزال ينبض بالرغم من كلّ ما مرّ عليه. من الطبيعي عند الأديب، بعد مروره بمحنٍ كالتي مرّت بها مي أن يسيطر الحزن على قلمه فيلوّن كتاباته باللّون الأسود، ويشبّع معانيها بكل مرادفات الحزن واليأس. لكنّ الألم والكآبة في أدب مي لا يظهران في المرحلة التي تلت وفاة والديها ووفاة جبران خليل جبران فحسب، بل طعم الألم في أدبها ظاهرٌ منذ انطلاقة مشوارها الأدبي، أي منذ بداياتها في الكتابة. ففي كتابها الأول "أزاهير حلم" كتبت عن الكآبة

[١٥] تقصد هنا رحيل والديها وجبران خليل جبران.

[١٦] غريّب، روز، مي زيادة التوهّج والأفول، مرجع سابق، ص ص.٧٢-٧٣

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

قائلةً: "حزينةٌ اليوم روحي وحزنها القاتم مؤلمي فعلام الاكتئاب."[١٧] كتبت مي زيادة أزاهير حلم وهو شعرٌ في اللغة الفرنسية عام ١٩١٠ أي عندما كانت تبلغ من العمر خمس وعشرين سنة، وإذا قمنا بمقارنةٍ بسيطة بين ما كتبته في ذاك العام والرسالة التي كتبتها لقريبها جوزيف زيادة عام ١٩٣٥ عندما كانت تبلغ من العمر خمسين سنة، نلاحظ الشعور بالكآبة نفسه، ونستنتج أنّ سبب الاكتئاب غير معروف عند الكاتبة لا في فترة صباها ولا حتّى في فترة كهولتها. فعام ١٩٣٥ كتبت: " إني أتعذّب يا جوزيف. ولا أدري السبب" وتكرّر: "إنّي لم أتألّم أبدًا في حياتي كما أتألّم اليوم... وددت لو علمت السبب على الأقل"، نلاحظ أنها تكرّر وتستغرب من عدم معرفتها لسبب حزنها الشديد. وهذا هو الشعور نفسه الذي كان يرافقها عام ١٩١٠ عندما كتبت في أزاهير حلم: "حزينةٌ اليوم روحي وحزنها القاتم مؤلميّ فعلام الاكتئاب؟".

يعتقد شيخ الأزهر مصطفى عبد الرزّاق، وكان من روّاد ندوة مي، "أن ميًّا لم تكن في أصل فطرتها كئيبة. وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة، على ما جدّ لها من كآبة وحزن."[١٨] كما وتستنتج الكاتبة روز غريّب أنّ الكآبة التي نلمحها في بعض إنتاج ميّ ليست كآبة طاغية أو ملحّة.[١٩] تحليلات يؤكّد عليها البعض وينقضها البعض الآخر. أمّا إذا أردنا تحليل سبب الحزن في أدب مي، يمكننا التوصّل إلى عدّة أسباب، وهي التالية: إنّ فريق من النقّاد يعزو السبب إلى تأثير الأدب الرومنطيقي على الكاتبة، وفريقٌ آخر يشير بتأثير الجوّ الطبيعيّ الذي كان مسيطرًا على فلسطين بين العام ١٨٨٥ و١٩٠٠

[١٧] سعد، فاروق، باقات من حدائق مي، مرجع سابق، ص. ٣٣٥

[١٨] عبد الغني، حسن محمد، *حياة مي*، كتب نادرة، سنة (١٩٤٦)، ص. ١٦٠

[١٩] غريّب، روز، مي زيادة التوهّج والأفول، مرجع سابق، ص. ٦٦

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

المرحلة التي عاشت فيها مي هناك حيث تكوّن مزاجها وحيث تكوّنت شخصيّتها. فقد بدأت في تلك الأعوام تَفِدُ جموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين وتنشئ المستعمرات وتخطّط لإخراج العرب من فلسطين. غمرت الأحداث الأليمة إذًا فلسطين، فكانت صورها تبعث على التأمّل والخشية أكثر ممّا تسوق إلى الابتهاج والانشراح والإقبال على الحياة، ما انعكس إلى حالٍ من الكآبة في شخصية مي لا يعرف لها سببًا ولا يتبيّن انعكاسها النفسي إلاّ بعد حين[٢٠]. فبعد قدومها إلى لبنان روت في مذكّراتها كم أنّها مشتاقة إلى الموت، فتقول: "أشتاق إلى الموت في هذه الأيام. ذلك لأني لا أفهم الحياة..."[٢١] فميّ لم تكن لتشعر بتلك الكآبة العميقة الصارخة لو لم تكن قد عاشت سنيّها الأولى في فلسطين، وهي ليست في كآبتها وتعاستها إلا تعبيرًا عن ذلك الجوّ. وتقول أيضًا: "ما أسرع مرور الزمن! إن أنا شعرت بالزّمن متعجّلًا كلّ هذا التعجّل في حداثتي، فما عسى يكون شعوري عندما أتقدّم في الحياة أعوامًا أخرى؟"[٢٢] يشعر الإنسان بمرور الزمن عندما تتسارع الأحداث عليه، فيحسّ أنّه عاش أحداثًا أكثر من قدرة تحمّل سنينه، وهذا ما شعرته والسبب يعود إلى كلّ الأحداث التي مرّت بها فلسطين آنذاك.

هناك فريقٌ ثالثٌ يشير إلى أنّ السبب هو أنّها عايشت الحربين العالميّتين الأولى والثانية. فالحرب العالمية الأولى التي اندلعت عام ١٩١٤، أي عندما كانت الكاتبة تبلغ تسعة وعشرين عامًا، أثّرت فيها، فتقول في "ظلمات وأشعّة" أنها وبعد اضطلاعها على خلاصة الأحوال آنذاك، دوّى في مخيّلتها هدير المدافع، وتمثّل

[٢٠] شرارة، عبد اللطيف، أدباؤنا "مي زيادة"، مرجع سابق، ص ص.١٣-١٤

[٢١] جبر جميل، مذكّرات مي زيادة، مرجع سابق، ص.٢٣

[٢٢] المرجع نفسه، ص.١٠

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

لناظرها صور الحرب المخيفة، ثمّ قصدت الاجتماعات، فملأ أذنها ضجيج الحرب التافه وضجرت من معانيها السطحيّة ومراميها الخبيثة. فعجبت "لبلاهة الإنسان وركاكة ميوله وفتور همّته".[٢٣]

كانت البلاد العربية في مطلع القرن العشرين لا تزال تنضوي تحت الاحتلال العثماني. وكانت تعيش المنطقة العربية مرحلة فوران ضد سياسة التتريك، والحروب، والاستبداد، والتعصب وعندما ترخي الحرب بظلالها على الإنسان تفتك به ليس فقط جسديًّا إنما أيضًا نفسيًّا ومعنويًّا. وبما أن الأديب هو فنّان مرهف الإحساس والمشاعر، ينال حصّة الأسد منها فيعبّر عنها في الكتابة، لنعود ونقرأ ما تفجّره الحرب قي قلمه وعلى دفتره من كلمات وسطور تخفي في طيّاتها مخلّفاتها البشعة. ومي أكثر الأشخاص تأثّرًا بالحرب كونها كائنًا بشريًّا في المرتبة الأولى، وأديبة في المرتبة الثانية وامرأة في المرتبة الثالثة. ومن المرجّح جدًّا أن تكون الحرب قد ساعدت في خلق شخصيّةٍ دائمة وشديدة الحزن فيها، فهي لم تعش فقط أحداث حربٍ واحدة لكنّها عاشت أيضًا أحداث الحرب العالمية الثانية التي اندلعت عام ١٩٣٩ عندما كان عمرها أربع وخمسين عامًا لتدفعها بالقول: "نفسي اليوم حزينة وحزنها قاتم"[٢٤].

إضافةً إلى كل تلك العوامل التي أشرنا إليها، هناك عامل آخر يساعد على التّأثير سلبًا على الكاتبة، وهو عامل الوحدة. منذ حداثتها ومي تشعر وتعيش الوحدة، فقد عاشت وحيدة لأبويها لا يؤنسها أخ ولا أخت. ثم كبرت فعاشت وحدة المرأة في مجتمعٍ ذكوريّ بامتياز . لذلك نراها تألف الوحدة وسط ضجيج البشر، ويساورها

[٢٣] زيادة مي، ظلمات وأشعة، الأندلس، سنة (١٩٦٥)، ص ص.١٧-١٨

[٢٤] سعد، فاروق، *باقات من حدائق مي*، مرجع سابق، ص. ٣٣٧

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

الحزن، فليس هناك غير الطبيعة ما يؤنس وحشتها، فتسمعها تحدّث مياه النهر وتقول: "سيري أيتها المياه ودعيني أبكي. لقد تلبّد جوّ فكري بالغيوم القاتمة. وقلبي–ما لك وله! –منفرد حزين..."[٢٥]، فهي تشكو للمياه حزنها وتروي لها بأنّ قلبها منفردٌ وحيدٌ وحزين.

الوحدة التي وكما ذكرنا أدّت دورها في صبغة الحزن على أدب مي، رافقتها منذ كتاباتها الأولى حتى الأخيرة، شأنها شأن الحزن الموجود في كتاباتها أيضًا. فهي في إحدى كتاباتها تدعو الجميع لتركها وحيدة بعيدة عن ضوضاء المدن. تدعوهم لتركها أيّامًا دون سماع أحد سوى الحفيف الموسيقي الحنون الذي تتنفس به الجبال. وترجوهم ليبعدوا عنها أصوات البشر التي تتبطّن الحسد والحقد والغل. لازمها شعور الوحدة منذ حداثتها، فأحدثت هوّة بينها وبين رفيقاتها وبين معلّماتها في مدرسة عينطورة، وراحت تبحث عن الأصدقاء في الطبيعة وفي الموسيقى، وهذا ما قالته في مذكّراتها عندما جلست إلى البيانو تريد أن تملأ وحدتها القاسية بالأنغام: "ما كدت أمسّ أصابع العاج حتى سحبت يدي. ما أشدّ البرد في البيانو! بل البرد في يدي وروحي. البرد في وحدتي وغربتي. إني جليد، ولكني جليد يتعذّب، وأشعر بأن كل ما في هذا الدير جليد حيّ ينبض ويتعذّب ويبكي!"[٢٦] لقد تركّزت في نفس مي وهي في لبنان تدرس، دواعي الألم والتشاؤم، فقد قدمت من الناصرة وفي قلبها بذور الكآبة الخانقة، وكان أن نمت تلك البذور في لبنان وهي في مقتبل العمر وريعان الشباب لترافقها في مسيرتها المليئة بالأشواك، ثمّ تعود فتكتب مع تقدّمها بالعمر في آخر كتاباتها: "قد تراكمت عليّ المصائب في السنوات

[٢٥]غريّب، روز، مي زيادة التوهّج والأفول، مرجع سابق، ١٩٧٨، ص. ١٩

[٢٦]شرارة، عبد اللطيف، أدباؤنا "مي زيادة، مرجع سابق، ص. ١٩–٢٠

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

الأخيرة[٢٧] وانقضّت على وحدتي الرهيبة، التي هي معنوية أكثر منها جسدية."[٢٨] لم تفارق هذه الوحدة مي، فهي التي عاشت وحيدة في كنف أبويها، ووحيدة بقيت عندما كبرت إذ إنها لم تتزوّج، ووحيدة ماتت في بيتها المتواضع في مصر بعد معاناةٍ كبيرة وبعد اضطهاد من اتّهمها بالجنون ومن قيّدها داخل جدران مصحّ ومن طبّق الحجر الصّحّي عليها.

تعرّفنا إلى أثر الحزن في أدب مي زيادة، وسننتقل إلى موضوعٍ آخر أخذ حيّزًا كبيرًا من أفكارها وكتاباتها وهو موضوع أخذ الاهتمام عينه من الرومنطيقيين، ألا وهو الوطن.

٤ –الوطن

"وُلدت في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأيّ هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟"[٢٩] وُلدت ميّ زيادة في الناصرة في فلسطين، من والدٍ لبناني ووالدة فلسطينية سورية الأصل، واستقرّت في مصر حيث أمضت حياتها. وقد اتّسمت شخصية مي بتنوّع الثقافات، فكانت تُتقن تسع لغات وهي: العربية، والفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية، واليونانية، واللّاتينية، والسريانية. وهذا الأمر كان يرمز إلى اتّساع حدود وطنها فكانت تقول: "لعلّ معرفتي لتسع لغات زادت في حدود وطنيتي، وجعلتني أنظر إلى العالم كأنّه وطني الأكبر."[٣٠]

---

[٢٧] وتقصد هنا رحيل والديها وجبران.

[٢٨]غريّب روز، مي زيادة التوهّج والأفول، مرجع سابق، ص. ٧٣

[٢٩]زيادة مي، ظلمات وأشعة، مرجع سابق، ص. ١٠٢

[٣٠]شرارة، عبد اللطيف، أدباؤنا "مي زيادة، مرجع سابق، ص. ٤٦

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

كثُرت أسماء الأوطان على مي، فأمست تعيش في ضياعٍ لا تدرك أيّ من الأوطان وطنها. وهذا ما يبرز جليًّا في مقال "أين وطني؟"، حيث يرى القارئ زفرةً حارّةً تطلقها لدى تفكيرها في وطنها المجهول، الضّائع بين الأوطان. فقد كان لانتقالها من وطن أهلها إلى مدينة القاهرة أثر عميق في شعورها وتفكيرها. عشقت مي مصر فكانت لها أكثر من وطن. شاركت في ثورة مصر عام ١٩١٩ ضدّ الاستعمار، فكانت من الدعاة لتنمية النزعة الوطنية والثورية. نشرت مقالات جريئة حولها تجلّى فيها إيمانها بحقّ مصر في التحرّر الاقتصادي والثقافي. وهذا ما قالته للشباب المصريين في عيدهم الوطني: "مصر للمصريين! هذه الكلمة أقرؤها لكم أيّها الشبان كاتبين، وأسمعها منكم محدّثين، وإنّها لجميلة خصبة عادلة، لكن ما هو أجمل...جعل مصر مصرية."[٣١]

انتقلت مي مع أهلها إلى مصر عام ١٩٠٨ حيث استقرّت هناك حتّى وفاتها عام ١٩٤١. شهد العام الذي انتقلت فيه مي إلى هناك الانقلاب العثماني وإعلان الدستور. وكان ولي الأمر في مصر يومذاك الخديوي عباس حلمي باشا، الذي اشتهر بانعطاف المصريين إليه. فامتاز عصره، من بين عصور سائر أسلافه بنهضة الأقلام، وإطلاق حرية المطبوعات، وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات وسائر عوامل النهضة العلمية[٣٢]. فكانت هذه الظروف جميعها مؤاتيه لمواهب مي الأدبية. صحيحٌ أنّ مصر أعطت لميّ الكثير، ولكنّها بالوقت نفسه أخذت من روحها الكثير، فتصرخ لها مناجية:" آه مصر العزيزة، عليك ألف تحيّة وسلام! بلاد الشمس والنور الباهر...مكمن الأرواح، معقل الخلود، خزينة الذخائر الغالية، جنينة الأفراح والتغاريد، حديقة الورد والفل

[٣١] المرجع نفسه، ص. ٦٠

[٣٢] زيدان، جرجي، تاريخ مصر الحديث، الجزء الثاني، دار الهلال، سنة (١٩٢٥)، ص. ٣٣٦

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

والبنفسج، سلام عليك وعلى نيلك..."[٣٣] مصر في نظرها هي الشمس والنور والروح والزينة والحديقة والورود، فهي كل شيء جميل ومُفرح ومُبهج، وهي منبع السرور والراحة.

تقول في كتابها "باحثة البادية" عن الوطن ما يلي: "ليس بين المعاني الاجتماعية ما هو أدعى إلى التحمّس والطرب من اسم الوطن لأن الوطن كل شيء. فهو الأهل والأحباب والدموع والابتسامات، وهو القبور الغاليات ومهد الذراري المقبلات. هو مجموع الوارثات الأثرية والتاريخية، والأخلاقية، والعلمية، والعملية."[٣٤] نرى أن الكاتبة هنا تدرك ما معنى وطن، تحدّد مفهومه وتقول أنّه كل شيء. ولكنّها تردف في مقال "أين وطني؟":"...إنّي دون سواي تلك التي لا وطن لها"[٣٥] وتكرّر هذه العبارة مرارًا وتكرارًا في هذا المقال، وتتساءل:" فلماذا أكون، دون سواي، تلك التي لا وطن لها؟"[٣٦] إنّ مي كانت تعيش عدم استقرار من ناحية انتمائها، فهي وكما ذكرنا سابقًا متعدّدة الثقافات، وإذا كان الوطن بالنسبة لها كما قالت:"...فهو الأهل والأحباب والدموع والابتسامات" فهنا يكمن ضياعها إذ إنّ لديها أهلٌ وأقاربٌ في فلسطين حيث وُلدت، وفي لبنان وطن أبيها والبلد الذي نشأت فيه وحيث أكملت دراستها وفي مصر المكان الذي عاشت وكتبت وأمضت عمرها فيه. هذه الانتماءات المختلفة خلقت في نفسها حالة عدم الانتماء التي نشعر بها في هذا المقال والذي يؤكّد عليها ما قالته في ختام مقالها أنّها ترى نفسها في وطنها تلك الشريدة الطريدة التي لا وطن لها.

---

[٣٣] جبر، جميل، مذكّرات مي زيادة، مرجع سابق، ص. ١١٧

[٣٤] زيادة، مي، باحثة البادية، نوفل، سنة (١٩٩٩)، ص. ٧٥

[٣٥] زيادة، مي، ظلمات وأشعة، مرجع سابق، ص. ١٠١

[٣٦] المرجع نفسه، ص. ١٠٢

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

نظرتها تلك تشبه نظرة العديد من الأدباء الذين سبقوها وعاصروها وحتّى الذين لحقوها. فالمفكر البريطاني توماس بين يقول في كتابه "حقوق الإنسان": "العالم هو وطني وديني هو عمل الخير." بينما يقول محمود درويش في قصيدته "جواز السفر":

يا سادتي! يا سادتي الأنبياء

لا تسألّوا الأشجار عن اسمها

لا تسألوا الوديان عن أمها

من جبهتي ينشق سيف الضياء

ومن يدي ينبع ماء النهر

كل قلوب الناس.. جنسيتي

فلتسقطوا عني جوار السفر!

يتجرّد الكاتب والأديب من هويّته يوم تصل كتبه إلى كلّ إنسان في كلّ أصقاع العالم، فيحسّ نفسه أنّه لم يعد ينتمي إلى وطنٍ واحد وإلى مجتمعٍ معيّن أو ثقافة واحدة، بل يشعر أنّه ملكٌ لكل فرد ولكلّ مجتمع ولكلّ بلد. هذا ما شعر به توماس بين ومحمود درويش ومي زيادة وغيرهم من الأدباء والمفكّرين. إذًا عوامل عديدة دفعت بالكاتبة للقول أنّها الشريدة الطريدة التي لا وطن لها! فمن الممكن أنّها باتت تشعر أنّ أدبها ملكٌ لجميع شعوب الأرض وباتت الأرض بأكملها وطنًا واسعا لها.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

سبق وأشرنا إلى أهمية ومكانة مصر في حياة الكاتبة، أمّا لبنان بلد الأب والدراسة والأقارب، لم يكن تأثيره في حياتها وفي أدبها أقلّ أهميّةً من مصر. في العديد من المقالات عندما تأتي الكاتبة على ذكر لبنان تقول عنه "وطني"، إذا قرأنا مثلًا مقال "وداع لبنان" نلاحظ أنّها تنعت لبنان بكلمة "وطني" أمّا مصر فتنعتها بكلمة "موطني" فتقول: "مصر موطني تناديني بصوت عميق القرار، طويل المدى، وها أنت ذا تتباعد عني وتغيب عن ناظري، فخمودًا يا حزني! ووداعًا يا وطني! إن كلمات الفراق والمؤاساة لتتبخر فيها اعشار جناني!"[٣٧] إن كلمة "وطن" تعني "مكان إقامة الإنسان ومقرّه، وإليه انتماؤه، وُلد به أم لم يولد"[٣٨]، أمّا كلمة "موطن" فتعني "كل مكان أقام به الإنسان"[٣٩]، إذًا لكلمة وطن دلالة أكثر على الانتماء وعلى التعلّق، وهذه الكلمة نقرؤها غالبًا في كتابات ميّ لدى تحدّثها عن لبنان وذكرها له.

أضف إلى ذلك، فهي تُعرّف عن نفسها ب "الفتاة اللبنانية" فتقول:" أكان بيرون[٤٠] يدري، أكان يهمه أن يدري، أن فتاة لبنانية ستقضي معه، أو ما تبقى منه، ساعات الوحدة الطويلة في غابات لبنان الجميلة."[٤١] إنها تعتبر نفسها فتاة لبنانية مهما تعدّدت انتماءاتها وتشعّبت. حبّ ميّ للبنان وتعلّقها به كان يكمّلها ويجدّدها ويزيدها نموًا، فتخاطب بلدها قائلةً: "ولكنني كلما أحببتك زدت نموًا واقتدارًا...كلما دفقت عليك أيا قمم جبالي،

[٣٧] جبر، جميل، مي زيادة في حياتها وادبها، مرجع سابق، ص ص.١٦٤-١٦٦

[٣٨] البستاني، فؤاد افرام، منجد الطلّاب، دار المشرق، ١٩٨٦، ص. ٩٢٧

[٣٩] المرجع نفسه.

[٤٠] شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومنطيقي.

[٤١] جبر، جميل، مي زيادة في حياتها وادبها، مرجع سابق، ص. ٢٠

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

عواطفي تجدّد فيّ الحب...أحبك، وسأحبك على الدوام."[٤٢] وكانت تشعر بحزنٍ شديدٍ يلازمها ويحزّ في أعماق نفسها فتتسابق إلى عينيها الدموع كلّما أرادت تركه والعودة لمصر، فتعود وتكرّر أنّ لبنان وطنها فلماذا عليها تركه: "إني لأجهل لماذا يشقّ عليّ الابتعاد عن لبنان. إنه وطني. والطبيعة فيه عذبة والمناظر خلّابة."[٤٣]

لم تسلم الناصرة من حبّ مي وكتاباتها. صحيحٌ أنّها لم تقض سنوات كثيرة هناك، ولكنّ البلد الذي يولد فيه الإنسان وينشأ فيه ويقضي طفولته يظلّ مطبوعًا في قلبه مهما كبر وزار بلدان ومهما اشتهر وعلا شأنه. هناك حنينٌ قويٌّ يشدّها إليه، وذكريات لا يمكن للزّمن محوها ولا إعادتها فتبقى موجودة كآهٍ في قلب الإنسان، وهذا ما ترجمته عندما كتبت بوحي الحنين إلى أيام الصبا الأولى في الناصرة: "ايه يا ناصرة! لن أنساك ما دمت حية. سأعيش دوامًا تلك الهنيات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة. وسأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات أعماقي."[٤٤] فالناصرة عند ميّ هي مدينة الأزاهير العذبة وهي المدينة التي احتفظت ببسمات صباها وأمانيها وأحلامها، وهذا هو أعزّ ما تملك في الوجود.

تتبدّل، على حدّ قول مي، شخصية الإنسان بتبدّل الأماكن التي يقيم بها، فالجبال التي تحيط به والأشجار التي تفيئه ظلالها والمياه والعصافير، كل منها يترك في نفسه أثرًا بليغًا خاصًا لا يقوى على محوه الزمان. مهما رأى الإنسان من آفاق مختلفة وجديدة لا يموت أبدًا الإنسان القديم الذي بداخله، بل يبقى حاضرًا أمام كل منظرٍ وكل حادثة تعيد إليه ذكرياتٍ قديمة. أحبّت مي فلسطين ولبنان ومصر حبًّا جمًّا، ووجدت في

[٤٢] المرجع نفسه.
[٤٣] المرجع نفسه، ص. ٤٨
[٤٤] المرجع نفسه، ص.٢٣

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

كلّ بلدٍ من هذه البلدان أهلاً وأصدقاءً وأحبابًا، وكان يشدّها الحنين إلى كلٍّ من هذه البلدان. كما أنها كتبت عنها جميعها، ولكنها مع ذلك كلّه كانت تشعر بالغربة والتشرّد وبعدم الانتماء، بالرغم من أنها أحبّت لبنان ومصر وفلسطين، ولكن على حدّ قولها: "أيكفي أن نحبّ شيئًا ليصير لنا؟ وهكذا رغم حبي الأفيح أراني في وطني تلك الشريدة الطريدة التي لا وطن لها."[٤٥]

٥-النهضة النسائية

إذا قمنا بمطالعة كل ما كتبت مي إضافةً إلى المحاضرات التي ألقتها عن المرأة، نلاحظ أنّ هذا الموضوع أخذ الحيّز الأكبر من اهتماماتها. صحيحٌ أن المواضيع التي تطرقت إليها الكاتبة متشعّبة، ولكنها بقيت مخلصة للنهضة النسائية ولخدمة المرأة التي كانت في أشد الحاجة إلى من يفتح لها أفق الوعي الجديد. وظلّ موضوع المرأة والنهضة النسائية على رأس المواضيع وتصدّر لائحة اهتماماتها.

لو تصفّحنا كتابها "كلمات وإشارات" لوجدنا عنوانه المتواضع يقف وراءه حشد من الخطب القيّمة التي تعدّ ثورة نسائية في أدبنا الحديث، وكتابها هذا في صفحاته القليلة يعبّر أبلغ تعبير عن بوادر الحماسة في أدبها لهذا الموضوع. ففي محاضرة لها عنوانها: "المرأة والتمدن"[٤٦] تشبّه المرأة بالزهرة التي تضمّ في كيانها أسرار الحنان والجمال. ولكنها تردف منوّهةً أن تلك الزهرة يعذّبها ظمأ الحرية وتجاذبها العواصف فلا ينقصف غصنها

[٤٥] زيادة، مي، ظلمات وأشعة، مرجع سابق، ص.١٠٥

[٤٦] أُلقيت هذه المحاضرة في حفلة أقامها "النادي الشرقي" في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من نيسان سنة ١٩١٤ أمام جمهور غفير من أعضاء النادي، والسيدات زوجاتهم وبناتهم.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

ولا يلتوي.[٤٧] إذا نظرنا لأوضاع المرأة في النصف الأول من القرن العشرين نرى أن المرأة الشرقية كانت تنوء تحت أعباء العهود العسكرية التي خلّفها التنازع والاقتتال على مناطق النفوذ والأسواق والمستعمرات في القرن التاسع عشر. وكان النظام الإقطاعي السائد في البلاد العربية يزيد في تخلّف الناس من رجالٍ ونساء، ما يترتّب عنه القضاء على المواهب وإخماد أنوار العبقرية عند الأفراد. ضِفْ إلى ذلك تاريخ السلطنة العثمانية التي لم تعرف طوال فترة نشوئها مدرسة ثانوية واحدة للبنات. كانت حالة المرأة، في البلاد العربية عمومًا وفي لبنان ومصر خصوصًا حيث عاشت مي، حالة انحطاط وتقوقع ما انعكس على أدبها، فكتبت عن المرأة مؤكّدةً في هذه المحاضرة أن المدنية لم تصلح الأحوال لأنّ الشقاء ما زال موجودًا وكذلك الحروب والفقر والانحطاط النفسي والعاهات الأخلاقية. وكل ذلك النقص سببه "تقهقر نصف الإنسانية، هو جهل المرأة"[٤٨]. إذًا كانت مي مؤمنة بضرورة تعليم المرأة كونها النصف الآخر للبشرية، النصف الذي "يناول الدهور آمال المستقبل، وينقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم."[٤٩]

تستعرض الكاتبة في هذه المحاضرة تاريخ المرأة الذي تقول إنه "تاريخ استشهاد طويل أليم"[٥٠]، غير أنها تنعي تاريخها الذي ترك الهمجية تجعل منها "حيوانًا بيتيًّا"[٥١] والجهل يحسبها "متاعًا ممتلكًا للرجل يستعمله

[٤٧]زيادة، مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص. ٣٠
[٤٨]زيادة مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص. ٣٢
[٤٩]المرجع نفسه، ص. ٣١
[٥٠]المرجع نفسه.
[٥١]المرجع نفسه، ص. ٣٣

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

كيفما شاء ويحطّمه إذا خطر له"[٥٢]. وبعد ذلك أصبحت المرأة "عبدة شقية وأسيرة ذليلة"[٥٣] إلى أن ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة "طفلة قاصرة"[٥٤] وإلى لعبة يلهو بها الرجل في ساعات فراغه، وأخيرًا تحوّلت إلى "تمثال بهرجة تتراكم عليه الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة"[٥٥]. هذه الجمل القصيرة والكلمات الجارحة تلخّص لنا كيف قرأت الكاتبة تاريخ بني جنسها، وكيف عبّرت عنه بأعنف الكلمات وأدقّها وأقربها إلى الحقيقة المجرّدة.

يظهر لنا جليًّا في هذه المحاضرة تعجّب مي أنّه كيف يمكن لرجال نوابغ وقادة أفكار أن يكرهوا المرأة ويحتقروها، وتعطي مثالًا على ذلك شعراء اللاتين الذين لم يروا من المرأة سوى جسدها، كما وتذكر شعراء اليونان الذين قالوا عن المرأة "بلية العالم". ولا تستثني أفلاطون الذي لم يترك موضوع إصلاح سياسي أو أدبي إلا عالجه، لكنه لم يفكّر يومًا في تحسين حالة المرأة، بل على عكس ذلك قضى حياته آسفًا لأنه ابن امرأة، حاقدًا على النساء ومزدرا بأمّه.[٥٦] كما أنها استغربت فولتير القائل إن فكر المرأة سريع العطب في القضايا العلمية، ذاكرةً بعض شهيرات العصور القديمة والحديثة مثل: لابلاس، ماري كوالسكي ومدام كوري اللواتي أبدعن في العلوم الطبيعية والعلوم المجرّدة. لم تقف الكاتبة عند هذه الأسماء، بل أضافت لها أسمين آخرين

[٥٢] المرجع نفسه.
[٥٣] المرجع نفسه.
[٥٤] المرجع نفسه.
[٥٥] المرجع نفسه، ص. ٣٢
[٥٦] زيادة، مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص. ٣٤

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

رفعا من شأن المرأة وهما: الكاتبان الإيطاليان دانتي وبترارکا اللذان ترنّما بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الحاد وجعلا من لورا[٥٧] وبياتريتشي[٥٨] اسمين لا يفترقان عن اسميهما.

ثمّ تشير الكاتبة إلى تحرّر المرأة في الغرب، مؤكّدةً أن القرن العشرين هو عصر المرأة وأن النهضة النسائية تمتدّ يوميًّا في أقاصي المسكونة، وهذا ما جعلها متفائلةً بغد المرأة والمدنية. وتذكر الكاتبة عددًا من البلدان الغربية التي جاهدت فيها المرأة في سبيل ترقية جنسها فوصلت "إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل"[٥٩]. إن مي من الأديبات اللواتي آمنّ بأن للمرأة والرجل الحقوق نفسها وأنه في البلدان التي ارتقت فيها المرأة كان تأثيرها نافعًا جدًّا على المجتمع بأكمله وعلى مستوى الأخلاق. حتى أنها ذهبت مع فكتور هيجو إلى أبعد من ذلك عندما عقّبت على قوله الشائع إن تحرير المرأة يحلّ أكثر المشاكل الاجتماعية، وليس فقط هذا، بل إنها وحدها القادرة على إلغاء الحرب في العالم.[٦٠]

أرادت مي تحطيم الأغلال التي ترهق المرأة الشرقية، فبدأت تنادي بضرورة تعليمها، وتقول بهذا الصدد: "يجب ان يبدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلًا. يجب اصلاحها السريع ليتيسر إصلاح الرجل. يجب أن يباشر تحرير المرأة كيلا يكون المتغذّون بلبنها عبيدًا. يجب أن يحسر غشاء الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك

---

[٥٧] هي حبيبة بيترارکا التي كتب لها جميع القصائد الموجودة في "كتاب الأغاني"، وهي رمز الحب المثالي.

[٥٨] هي حبيبة دانتي التي كتب لها كتاب La Vita Nuova أي الحياة الجديدة، وهي تعبّر عن جماليّة الروح في La Divina Comedia وعن الإيمان الذي يرافق المؤمن إلى الجنّة.

[٥٩] زيادة، مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص. ٣٧

[٦٠] المرجع نفسه، ص. ٤٠

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

الناظر فيهما من زوج وأخ وولد أن معنى الحياة عظيم."[٦١] ولم تقف فقط عند تعليم المرأة، بل أشارت أن حقّ التعليم من الحقوق الابتدائية وإن كانت جوهرية. لم تفصل الكاتبة يومًا موضوع تحرير المرأة على تحرير المجتمع ككلّ، فكانت تصرّ على أهمية الرجل في دفعها إلى الأمام وعلى مدّها بالقوّة للنهوض فتنتفع لتنفع مجتمعها وتسير لتسيّره وترتقي لترقّيه. وكما أنها تلقي اللّوم عليه كونه كان منكرًا عليها حقّ التعليم، فأبقى المرأة عبدة تخفي جهلها تحت أثوابها الحريرية وأساورها وجواهرها. كذلك تقول إن الرجل حرّرها وجعل لها "صوتًا صغيرًا–ولكنّه صوت على كلّ حال– بين أصوات الشعراء والخطباء، منشطيها ومرغميها على تناسي ما هي عليه من الضعف والقصور."[٦٢] فهي تؤكّد على دور الرجل الفعّال في تحرير المرأة فتقول: "الرجل موجد الحركة النسائية عندنا، والرجل منشطها، والرجل مؤيّدها."[٦٣] كما أنها تقول في محاضرة لها[٦٤]: "أنا الفتاة الشرقية يشركها الرجل في جليل أعماله...أنا تلك التي خفت صوتها دهورًا لأنّ الرجل كان كما كان. أما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى، فقد أوقفني في مكاني جاعلًا صوتي يتصاعد حرًّا..."[٦٥] نلاحظ من خلال ما تقدّم كيف أنها تحاول بكلماتها تحفيز الرجل على فتح الطريق أمام طاقات المرأة ليساعدها على التّقدّم وعلى السير حرّة. فكأنها تريد القول إنه لا يمكن للمرأة الانطلاق من دون مساعدة الرجل الذي كان يرفض كل أشكال المساواة.

---

[٦١] جبر، جميل، مذكّرات مي زيادة، مرجع سابق، ص. ١٨١

[٦٢] زيادة، مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص ص. ٥٢–٥٣

[٦٣] جبر، جميل، مذكّرات مي زيادة، مرجع سابق، ص. ٥٣

[٦٤] ألقيت في الإجتماع الذي عقد في الأوبرا مساء ١٦ مايو سنة ١٩١٩، لإنشاء "ملجأ الحرية"، إجابة لطلب الدكتور عبد العزيز نظمي الذي دعا إلى إنشاء ذلك الملجأ إبان الحركة الوطنية.

[٦٥] جبر، جميل، مذكّرات مي زيادة، مرجع سابق، ص. ١١٠

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

لم تسكت مي زيادة يومًا عن أي سوء معاملة أو استخفاف بعقل المرأة. كانت متصدّيةً له وحاضرة لتردّ عليه بأسلوبها الخاص، فتبتعد عن التعصّب بالرّدّ وعن الكلمات المشينة لتستعين بأسلوبٍ هادئ ولطيف وذكيّ جدًّا. حتى أنها تلجأ إلى الاستهزاء في بعض الأحيان لتوصل فكرتها بطريقة سلسة وصائبة. ومثالاً على ذلك الرسالة التي أرسلتها إلى لطفي بك السيد عام ١٩١٤ بعد حفلة الأربعين لتأبين فتحي زغلول باشا حيث مُنعن النساء من حضور الحفلة، فكتبت تقول:" لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفلة التأبين؟ ...ومصر كسائر بلاد الله، على ما أظن، تتألّف من رجال ونساء."[٦٦] ثم تنتقل إلى الجدية في الحديث لتسأل كيف يمكن نبذ الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي باشا ورفيقة نعشه، والدته وزوجته، وتتابع قائلةً: "نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيدًا في ظلّ النصر الشامل يوم يكون الرجل غالبًا قاهرًا. حتى إذا نهش نفسه اليأس وأدماها الألم، وخالطتها وحشة الموت عاد إلى جنب الجنس الذي لم يخلق إلا ليكون شقيًّا، الجنس النسائي."[٦٧] لإيصال فكرتها استعانت مي بأسلوبها الساخر ثم حوّلته سريعًا إلى أسلوبٍ جادّ بهدف إظهار دور المرأة في حياة الرجل وعدم الاستخفاف به أو السعي إلى محيه.

ما يميّز مي زيادة في أدبها لدي تطرقها لموضوع المرأة، هو عدم تعصّبها لجنسها والنقد الذي يطال المرأة كما يطال الرجل. فهي بعدما لاحظت في أثناء استماعها لمحاضرة ألقتها لبيبة هاشم عن حرية المرأة في الجامعة المصرية، عام ١٩١١ ضربًا من الخفّة والاستهزاء بموضوع المحاضرة لدى بنات جنسها، ورأت الحاضرات يلتهين بأحاديث البنات المعتادة من ملابس وأزياء وسرد قصص، تنبّهت إلى حقيقة موقفها كامرأة

[٦٦] زيادة، مي، الصحائف، نوفل، سنة (١٩٧٥)، ص. ١٤٨

[٦٧] المرجع نفسه.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

عربية من هذه القضية. كما أنها انتقدت الحديث النسائي فقالت أن "السيدات إما يصغين جميعًا ولا تتكلّم منهن واحدة وإما يتكلمن جميعًا في آن واحد ولا تصغي منهنّ واحدة".[٦٨] كانت مي مدركةً بالكامل وضع المرأة الشرقية في ذلك العصر، كانت ترى كيف أن الفتيات أسيرات الأزياء وعابدات التبرّج، ولكن بالوقت نفسه كانت تسلّط الضوء على مساعي الكتابة عند النساء وعلى جرأتهنّ وإقدامهنّ على الكتابة، وتشيد بخطواتهن الأولى في هذا المجال، مجال التعبير عن الذات لجمهورٍ يرقبهنّ في نظرةٍ خاصة، تائقًا إلى تصفّح نفس المرأة في ما تصف به نفسها، وليس في ما يرويه عنها الكاتبون. وهي تطالب هذا الجمهور بالتساهل في حكمه على ما يقرأ وبعدم رمي جميع أعمال الكاتبات بالضعف النسائي لأن النساء، وكما تقول الكاتبة، "ما زلنا "مبتدئات" يكتشفن الطرق في غابات مهجورة ويمهّدن السبل بين الصخور والأدغال"[٦٩]، كما وإنها تدعو المجتمع إلى الثقة بجوهر المرأة.

تمثّل مجهود الكاتبة في تفعيل النهضة النسائية في المقالات والمحاضرات والخطابات التي نشرتها وفي حضورها لأندية نسائية، فكان قلمها من المصابيح للنهضة الحديثة ولم يكن أدبها إلّا مجدًا للمرأة العربية فأعدّت الدراسات الأدبية في باحثة البادية، وردة اليازجي، عائشة التيمورية تقديرًا للمواهب النسائية وإجلالًا لهؤلاء الرائدات السابقات. تأثّرت مي بجميع تلك الأسماء التي سبقتها، وتحديدًا بالسيدة ملك حفني ناصف الملقّبة "بباحثة البادية"[٧٠] فكتبت عنها كتابًا دارسةً أعمالها واصفةً إيّاها الرّائدة المعروفة لنهضة المرأة. ويُعتبر هذا الكتاب من بواكير أبحاثها في النقد الاجتماعي الذي يتناول قضية المرأة. وقد قامت بين الأديبتين صلة

---

[٦٨] زيادة، مي، سوانح فتاة، مرجع سابق، ص. ٧٥

[٦٩] المرجع نفسه، ص. ١٢

[٧٠] ولدت سنة ١٨٨٦ وتوفيت سنة ١٩١٨ وهي صاحبة كتاب "النسائيات" ومن أبرز رائدات النهضة النسائية في ذلك الحين. *المنجد في اللغة والأعلام*، دار المشرق، سنة (٢٠١٦)

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

مودّة وكانت مي هي التي بدأت بمراسلتها فكتبت لها تقول: "ترنّمت باسمك قبل أن أعرفك، واتّخذت ذكرك عنونًا لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك. لأن أصوات الجمهور قد اتّفقت في الثناء على فضلك..."[٧١]. في هذا الكتاب انطلقت ميّ في بسط ما أمكنها بسطه من آراء اجتماعية وأدبية، تتكلّم فيها عن باحثة البادية المرأة وتؤكّد أن المرأة أساس كل إصلاح وأنّ الوسيلة الوحيدة لإصلاحها هي تعليمها.[٧٢] وتنادي بأعلى صوتها في هذا الكتاب بالمساواة بين المرأة والرجل فتقول: "نريد أن نكون متساوين في الحقوق الأدبية والعمرانية ما دمنا متساوين في الواجبات والمسؤوليات."[٧٣]

لطالما حسبت مي باحثة البادية عنوان النهضة النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد المسافات، هذا ما ذكرته في كلمة لها ألقتها في تأبين باحثة البادية.[٧٤]ولكنها لم تكتف فقط بدراسة باحثة البادية فأصدرت كتابًا أيضًا عن امرأة عربية وهي "وردة اليازجي" التي تعتبر من أشهر النساء اللواتي عرفهنّ "تاريخ الآداب العربية ومن أذكاهنّ وأفضلهنّ"[٧٥]، حسب ما ورد في مقدّمة الكتاب بقلم مي. توافق مي بهذا الكتاب اليازجي على أنّ كل المنفعة هي من علم المرأة في تربية البنين، وتضيف على ذلك أنه بإمكان المرأة العمل والتأثير في جميع جوانب الحياة. فتذكر دورها بتذكية العاطفة الوطنية في أبناء الوطن ببث الشهامة

---

[٧١] زيادة، مي، باحثة البادية، مرجع سابق، ص. ١٤٦

[٧٢] المرجع نفسه، ص ص. ١٢٦-١٢٧

[٧٣] المرجع نفسه، ص. ١٨٦

[٧٤] ألقيت في الحفلة التي أقامتها السيدات المصريات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية لمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٩.

[٧٥] زيادة، مي، وردة اليازجي، نوفل، سنة (١٩٧٥)، ص. ١٣

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

والنبل في النفوس، وبالسهر على تربية أطفاله، وبنشر فكره، وبترقية لغته، وبترويج صناعته وفنه، وبالثقة في مستقبله. المرأة هي كل شيء بحسب مي، هي المربية والمرشدة والمعلّمة والعاملة، فعلى أكتافها تقع مسؤولية الأوطان ومسؤولية ارتقائها ثقافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا.

بالإضافة إلى هاتين الكاتبتين، كتبت مي كتابًا عن عائشة التيمورية وهي شاعرة رائدة من شاعرات مصر. لمعت هذه الشاعرة في عصر الظلمة وظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل، فجاءت بارقًا يبشر المرأة المصرية ومستقبلها. تتناول مي في كتابها عصر التيمورية الذي يمثّل دور اليقظة في تاريخ النهضة. وتشير في كتابها هذا إلى وضع المرأة آنذاك وإلى سيطرة الجهل على النساء اللواتي لم يسمح لهن بالخروج إلى المدارس فكنّ يتلقين العلم في منازلهن على أيدي معلمين ومعلمات خصوصيين كما فعلت عائشة.

لم تكفّ مي يومًا عن الإيمان بأن لا قيام للمجتمع العربي المتكامل إلا بمشاركة المرأة التي أوتيت من المواهب كما أوتي الرجل. ولطالما عُدّت من رائدات النهضة للمرأة العربية المعاصرة و"صوت المرأة الصامت منذ أجيال"[٧٦]، هذا الصوت الذي تعوّد على همس الطاعة وتمتمة التمرّد، هو صوتها الذي يلخّص صوت كل امرأة شرقية عاشت في النصف الأول من القرن العشرين، صوتٌ عانى الكثير فصرخ عاليًا: "أيّها الرجل! لقد أذللتني فكنت ذليلًا. حرّرني لتكن حرًّا، حرّرني لتحرّر الإنسانية!"[٧٧]

استنتاج:

[٧٦] المرجع نفسه، ص. ٤١

[٧٧] زيادة، مي، كلمات وإشارات، مرجع سابق، ص. ٤١

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

تشرح الكاتبة أنها هي المستفيدة الأولى من خطبها ومن كتاباتها، وأنه ليس من جمهورٍ يستفيد من تعاليمها أكثر منها، فتقول: "...خلقت لذاتي الجماهير لا لأعلّم، بل لأتعلّم، لا لأفيد بل لأستفيد، لا لأوقف الآخرين على أسرارهم وممكناتهم بل لأهتدي إلى أسراري وممكناتي"[٧٨]. فهي عندما كانت تكتب كانت تتعلّم وتستفيد، وليس فقط هذا، بل كانت من خلال كتاباتها تستكشف نفسها وأسرار نفسها وإمكاناتها. وكأنّها تكتب ما لا تعرف وتفسّر ما لا تفهم، لتعود وتكشف عن نفسها وتتعرّف إلى مكامن روحها من خلال كتاباتها. وتكمل:"...تكلّمت ودرست وكتبت وخطبت لأهذّب نفسي وأدلّلها، لأعزيها وأنميّها، فعلت ذلك لأطير ونفسي فوق الشواهق، ونحسو ماء الغدران، ونكتنه غور الأعماق، ونمتص عصير الأزهار، فأعيش وإياها تلك الحياة الداخلية الرائعة التي يُشرَف منها وحدها على بدائع الكون."[٧٩] نستنتج من كلامها هذا أنّ تعلّمها لم يقف عند نهاية تحصيلها العلميّ فحسب، بل كانت تعمّقه وتغنيه وتغذّيه وتضفي عليها رونقًا وثقافةً من خلال كل خطبة كانت تلقيها وكل مقالٍ كانت تكتبه، فكانت تنميّ نفسها وتهذّبها وتعلّمها وتدلّلها، لتنتقل وإياها إلى الأعماق والأزهار والمياه ومن هناك "تُشرف على بدائع الكون"[٨٠]. إذًا إن المواضيع التي عالجتها الكاتبة متشعّبة وهي تطال كل إنسان وكل مجتمع مهما اختلفت انتماءاته ومعتقداته وتوجّهاته، كتبت متأثرة ببيئتها وبكل ما كان يدور في محيطها من مؤثرّات اجتماعية وثقافية وسياسية وفكرية، وكتاباتها تركت بدورها تأثيرًا ضخمًا على المجتمعات العربية التي ما زالت تعتبرها نابغة الشرق ورائدة عصرها.

---

[٧٨] زيادة مي، ظلمات وأشعة، مرجع سابق، ص. ٩٢

[٧٩] المرجع نفسه.

[٨٠] المرجع نفسه.

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

في العربية:

١-زيادة مي، باحثة البادية، بيروت، نوفل، ١٩٩٩

٢-زيادة مي، ظلمات وأشعة، بيروت، الأندلس، ١٩٦٥

٣-زيادة مي، كلمات وإشارات، بيروت، نوفل، ١٩٧٥

٤-زيادة مي، وردة اليازجي، بيروت، نوفل، ١٩٧٥

٥-زيادة مي، الصحائف، بيروت، نوفل، ١٩٧٥

٦-زيادة مي، سوانح فتاة، بيروت، نوفل، ١٩٧٥

٧-جبر جميل، مذكّرات مي زيادة، بيروت، دار الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٨٠

٨- جبر جميل، مي زيادة في حياتها وادبها، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠

٩-زيدان جرجي، تاريخ مصر الحديث، الجزء الثاني، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٥

١٠-سعد فاروق، باقات من حدائق مي، بيروت، منشورات زهير بعلبكي، ١٩٧٣

11-سكاكيني وداد، مي زيادة في حياتها وآثارها، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩

١٢-شرارة عبد اللطيف، أدباؤنا "مي زيادة"، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥

١٣-عبد الغني حسن محمد، حياة مي، القاهرة، كتب نادرة، ١٩٤٦

١٤-غريّب روز، مي زيادة التوهّج والأفول، بيروت، نوفل، ١٩٧٨

Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة
ISSN: 2707-7675

١٥–البستاني، فؤاد افرام، منجد الطلّاب، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦

١٦–قاسيميّ، زهير، الرومنطيقية نبذ للعقل وتمجيد للعاطفة، الشبكة العربية العالميّة، نقد ودراسات، ٢١ كانون الأول٢٠١١

١٧–حبيب، بولس، ميّ زيادة كاتبة صقلتها المعاناة، مجلة الجبة الديمقراطية للسلام والمساواة، ٨–١–٢٠١٢

في الأجنبية:

1-Fischer Ernest, The Necessity of Art, California, Penguin Books, 1978